اسم الدرس : تفسير سورة الفتح (١) | الآيات [١ : ٢]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

❖ مقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد -صلى الله عليه وسلم-، بإذن الله -عز وجل- ومشيئته، ونطلب منه العفو والرضا -سبحانه وتعالى-، بإذن الله -عز وجل- نستفتح ونعود مرة أخرى إلى مجالس القرآن، إلى وقفات مع سورة من سور كتاب الله -عز وجل-.

مَنّ الله -عز وجل- علينا بفضله وكرمه ورحمته وانتهينا من سورة الأنعام، وبعد ذلك سورة سبأ وسورة فاطر ويس، واليوم بإذن الله -عز وجل- نستفتح سورة مدنية، كل السور السابقة: الأنعام وسبأ وفاطر ويس كانت سور مكية، فنحن بفضل الله -عز وجل- اختار الله -سبحانه وتعالى- لنا هذه السورة، سورة الفتح.

بإذن الله -عز وجل- نحاول أن نعيش معها الأيام القادمة بإذن الله -عز وجل-، ونسأل الله -عز وجل- أن يكون لنا من اسمها أوسع نصيب، وأن يفتح الله -عز وجل- لنا من كل أبواب الخير، وأن يجعلنا مفاتيحًا للخير مغاليقًا للشر.

سورة الفتح سورةٌ عظيمة، وكان الصحابة مثل أي سورة من القرآن يحتاجون أن تنزل عليهم تلك السورة، لكن في هذا الوضع تحديدًا كانوا أشد احتياجًا لهذه السورة.

❖ مسألة اختيار السور:

لكي أكون صادقًا معكم، مسألة أن الناس يقولون: لم لا نسير بالترتيب؟ لأن هذا يكون فتحًا من الله -عز وجل-، بما أننا نتكلم عن سورة الفتح، فمن يوفّقه الله أن يعطيه الفهم للسور بطريقةٍ متتالية؛ فهذا من عند ربنا -سبحانه وتعالى-.

فهذا مثلًا إمام من الأئمة مثل الإمام ابن كثير، يستفتح ويكتب تفسيرًا كاملًا للقرآن، وهذا يمن الله -عز وجل- عليه ويفهم شيئًا من القرآن، فنحن نحاول أن نجلس مع بعضنا نتكلم حول هذه السورة، فأقرأ

التفاسير وأنقل لكم ما وجدت في التفاسير حتى نقترب ولو بخطوة واحدة من فهم كتاب الله -عز وجل-.

ويجب على الإنسان أن يستحضر قيمة فهم آية من كتاب الله -عز وجل-؛ لأن هذا هو النور والشفاء والبصائر والهدى والروح في حياة الإنسان، وعكس هذه الأوصاف تحدث للإنسان إذا غاب عنه القرآن؛ لذلك علينا أن نحرص كل الحرص على مجالس القرآن وتدبّر القرآن، نتدارس بيننا القرآن ولو في أبسط صوره، مجلس بسيط، ومعاني كلمات؛ لا يزل الإنسان في مثل هذه المجالس.

سورة الفتح كما قلت لكم سورة عظيمة، سنرى كيف أنهم كانوا بحاجة كبيرة لتلك السورة، في رواية عن أنس بن مالك قال: "سورة الفتح نزلت وأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخالطهم الحزن والكآبة"، تخيل شرح الوضع النفسي لحالة الصحابة قبل نزول سورة الفتح، في قمة الحزن والكآبة!

كيف جعلتهم السورة يستبشرون ويتحركون وينطلقون، مثل آيات آل عمران التي جعلتهم يستجيبون لله ولرسوله من بعد ما أصابهم القرح، كيف ينزل القرآن ليجاوب على أسئلة مثل "أنّا هذا؟"، أحيانًا تحدث أحداث فوق طاقة البشر أن يفهمها، هو لا يفهم، مثلما حدث في صلح الحديبية في سورة الفتح، لا يفهمون ما حدث وأحداث غريبة؛ فينزل القرآن ليكون نورًا في هذه الأوقات.

لذلك قال الله -عز وجل- عن القرآن "كذلك"، أي أنزلنا القرآن مفرقًا منجمًا {كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ} [الفرقان: ٣٢]، فؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم- يحتاج إلى القرآن كي يثبت فما بال أفئدتنا؟! فؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم- يحتاج إلى تنزل القرآن بصورة مستمرة ومتقطعة حتى يثبت فما بال أفئدتنا؟! فماذا نحتاج نحن إذًا؟! إذا كان هذا أطهر فؤاد على وجه الأرض، أطهر قلب، قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان يحتاج للقرآن، فماذا عنّا؟!

حتى لا أطيل عليكم وخاصة في المقدمة، فأنتم تعلمون أنني دائمًا أطيل فتأخذ المقدمة درسًا بمفردها، قبل أن نبدأ ونتكلم في آيات سورة الفتح {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} هل من أحد يذكّرني ما هي السور التي بدأت بـ {إِنَّا}؟

يجب أيضًا ونحن نسير في التفسير عندما تقابلنا كلمة جديدة في السورة أن نرى هل أتت في سور أخرى أم لا؟ وما هي المواضع التي أتت فيها هذه الكلمة؟

إذًا سورة الفتح نريد أن نرى أولًا موضعها في القرآن، وهل هي سورة مكية أم لا مدنية؟ مدنية، وأين نزلت؟ في أي حادث؟

طبعًا هناك اختلاف في ما هو هذا الفتح على أربع أقوال، الأشهر أنه "صلح الحديبية"، صلح الحديبية هذا أين كان؟ بالقرب من مكة، وليس في المدينة، إذًا لم يقولون عليها مدنية؟ -سواءً كانت في الطريق أو بالقرب من مكة-، بسبب الهجرة.

هناك خلاف في تقسيم المكي والمدني؛ لأن بعض العلماء يصرّون أن نسميها بالمكية أو نسميها الحديبية أو في الطريق بين مكة والمدنية لكن لا نقول عليها مدنية، ولكن الذي اشتهر عند الجماهير -المتقدمين والمتأخرين- أن التقسيمة ما نزل قبل الهجرة أيًا كان المكان الذي نزلت فيه السورة تسمى مكية، وما نزل بعد الهجرة أيًا كان مكان السورة تسمى مدنية، وماذا عن الطريق في الهجرة؟ يسمونها مكية كذلك.

وقيل في {إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} [القصص: ٨٥] آخر سورة القصص أنها مكية؛ قيل أنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة، فبعد الهجرة، الرسول -صلى الله عليه وسلم- نزل عليه القرآن في أماكن شتى، فما نزل في غزوة تبوك يسمونها مدنية، نعم لم تكن في المدينة ولكن مدنية بأحكام المدينة، ببناء مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ببناء الدولة الإسلامية، فبسبب هذه

الأحكام وبسبب هذه النقلة التي حدثت في التشريعات وهذا التمكين الذي حدث للنبي –صلى الله عليه وسلم–؛ يسمونها مدنية.

أذكر ذلك كي لا يأتي اعتراض: كيف ذلك؟ لم تكن السورة في المدينة، الرسول لم يكن في المدنية أثناء نزول هذه السورة، كانت أثناء رجوعه، ولما نزلت عليه السورة نادى عمر بن الخطاب في الطريق وقرأ عليه سورة الفتح وقال: (أُنزلت علي آية هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها)[1] ، (أو مما طلعت عليه شمس)[2] الرسول –صلى الله عليه وسلم– كان فرحًا جدًا بتلك السورة، وأحبّ أن يفرح الصحابة بتلك السورة.

فإذًا لم نسمّيها مدنية؟ لأنها نزلت بعد الهجرة، هذا مكانها في تقسيم المكي والمدني.

❖ موضع السورة في القرآن

الآن تعالوا نرى موضعها في القرآن، لما نأتي لنرى موضعها في القرآن، قبل أن نتكلم في موضعها –هذه مقدمة المقدمة– نجد أن ترتيب القرآن في المصحف فيه خلاف بين أهل العلم هل هو توقيفي أم لا؟ فأنا آخذ بقول أن ترتيب المصحف توقيفي، وهذا خلاف يرجع في مظانه للبحث عنه.

---

[1] عن أنس بن مالك :عن أنسِ بنِ مالكٍ في قولِه} :إنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ {[الفتح: ١، ٢] قال: نزَلت على رسولِ اللهِ ﷺ مرجِعَه مِن الحُديبيةِ وإنَّ أصحابَه قد أصابَتْهم الكآبةُ والحُزنُ فقال رسولُ اللهِ ﷺ : (نزلَت عليَّ آيةٌ هي أحَبُّ إليَّ مِن الدُّنيا وما فيها) (فتلاها رسولُ اللهِ ﷺ عليهم فقالوا: يا رسولَ اللهِ بيَّن اللهُ لك ما يفعَلُ بك فماذا يفعَلُ بنا؟ فأنزَل اللهُ الآيةَ بعدَها} :لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ] {الفتح:٥}

شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج صحيح ابن حبان ٣٧٠ • إسناده **صحيح على شرط الشيخين**

[2] عن عمر بن الخطاب :أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ يَسِيرُ في بَعْضِ أسْفارِهِ، وعُمَرُ بنُ الخَطّابِ يَسِيرُ معهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ عن شيءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، وقالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا عُمَرُ، نَزَرْتَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَ مَرّاتٍ كُلُّ ذلكَ لا يُجِيبُكَ، قالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أمامَ المُسْلِمِينَ، وخَشِيتُ أنْ يَنْزِلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَما نَشِبْتُ أنْ سَمِعْتُ صارِخًا يَصْرُخُ بي، قالَ: فَقُلْتُ: لقَدْ خَشِيتُ أنْ يَكونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، وجِئْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عليه، فَقالَ: لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ، لَهي أحَبُّ إلَيَّ ممّا طَلَعَتْ عليه الشَّمْسُ ثُمَّ قَرَأَ} :إنّا فَتَحْنا لكَ فَتْحًا مُبِينًا] {الفتح: ١}

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري [٤١٧٧] **صحيح**

سنجد في ترتيب المصحف غالبًا تأتي مجموعة سور مكية وراء بعضها وبعدهم سورة مدنية، أو مجموعة سور مدنية وبعدهم مجموعة سور مكية وراء بعضهم، وبعدهم سورة مدنية، فهناك مكي مدني، مكي مدني، ليس المكي كله متتاليًا وينتهي ثم نجد المدني، لا.

قد يشير هذا التقابل بين المدني والمكي إلى -لما تكلم العلماء عن السبب وراء تلك المسألة- أنه قد يشير إلى أن الإسلام سيمر بدورات من التمكين والاستضعاف، فالسور المكية تمثل واقع الاستضعاف، والسور المدنية تمثل واقع التمكين.

نجد أن سورة الفتح نزلت في صلح الحديبية، ما الذي كان قبل صلح الحديبية بوقت قصير من الغزوات؟ الأحزاب، ما بين الفتح في المصحف والأحزاب سور كثيرة جدًا، لو قلنا أن محمد والفتح والحجرات وحدة مدنية مع بعضها البعض، أول سورة مدنية غير محمد -صلى الله عليه وسلم- قبل الفتح: الأحزاب، ثم بعد ذلك شوط طويل من السور المكية وينتهي عند الأحقاف -سنتكلم في هذه المسألة الآن- وبعد ذلك محمد والفتح والحجرات ثلاث سور متتالية مدنية، فهم كوحدة مدنية متتالية، وبعد ذلك تبدأ دورة جديدة من الاستضعاف في سورة (ق) في المكية وتنتهي عند سورة الحديد.

فعندما نأتي لنرى الموضع، فالقرآن ترتيبه ليس المقصود منه في ترتيب المصحف السياق التاريخي وإلا كانت أتت الفتح بعد الأحزاب، لأنه ما الذي كان قبل الفتح مباشرة؟

كانت غزوة الأحزاب، وهذا الذي يدلك على قوة المسلمين، كيف أنهم -الأحزاب- كانوا السنة التي قبلها عندنا قد جمعوا عشرة آلاف مقاتل وأتوا للمدينة، ونحن السنة التي بعدها من نذهب لمكة، غير خائفين، ألف وأربعمائة مسلم -على خلاف ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة-، كيف نتجهز ونذهب لنعتمر في مكة، وهم كانوا قبل قليل عندنا، ويحاصرون المدينة، كيف ذهبنا نحن حتى مكة؟ لذلك المنافقين خافوا الخروج، قالوا هؤلاء ليسوا بعائدين -نتكلم على مسألة ظن السوء التي تكررت في السورة-.

إذًا نريد أن نستحضر مكان سورة الفتح في ترتيب المصحف، نحن قلنا أحيانًا أو الغالب أن مجموعة سور مكية ويأتي بعدهم سورة مدنية، لو افترضنا أن مجموعة السور المكية تلك تمثل واقع الاستضعاف، وبعد ذلك السور المدنية تمثل واقع التمكين.

قلنا الوحدة المدنية التي نحن نتكلم فيها هي سورة محمد -القتال-، وسورة الفتح، وسورة الحجرات، وسنتكلم عن الترابط بينهم الآن، هؤلاء الثلاثة تحديدًا، سنتكلم عن علاقة الفتح بما قبلها كله، وليس الفتح ومحمد فهما لهما علاقة خاصة.

العلاقة بين سورة محمد -صلى الله عليه وسلم- -سورة القتال- وسورة الفتح هناك ترابط خاص، هذا سنتكلم فيه، أتعرف مثلًا عندما يكون هناك شخص في العائلة له صلة قرابة بعمك وبخالك، لكن أخوه لا، صلة مختلفة، فهو بالظبط كذلك، سورة الفتح هي في منظومة من أول سورة سبأ حتى سورة الحجرات.

لو افترضنا أن دورة الاستضعاف والتمكين تلك انتهت بسورة الأحزاب، كانت آخر سورة مدنية قبلها شوط طويل جدًا مكي -أريد أن يكون ترتيب المصحف في ذهنك- شوط طويل مكي: "الم" المكية: العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، وقبله طسم الثلاثة، وقبله كذلك الفرقان، وقبلها النور، من أول الفرقان حتى الأحزاب هذا شوط، بدأ شوط آخر من سبأ حتى الحجرات؛ لذلك كانت هناك لفتة جميلة من أحد المفسرين يقول: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحا مُّبِينا} تشير إلى وعده -سبحانه وتعالى- في قوله {مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ} [فاطر: ٢] التي في سورة فاطر التي هي ثاني سورة مباشرة بعد سبأ.

نحن قلنا هذا الشوط بدأ من سبأ، ثاني سورة بعد سبأ هذا الوعد بالفتح، ومتى تحقق الفتح؟ انظر بعد أي مدة؟ لذلك **يجب أن تصبر ولا تستعجل في الطريق، الله لا يعجل لعجلة أحد**، تلك من أهم دروس صلح الحديبية، أننا دائمًا مستعجلون، نريد الفتح بسرعة، لا، {إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٩٠].

لابد من الصبر مع التقوى، لابد من الصبر مع الإيمان {وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ}[آل عمران: ١٤٢]، ويقولون {يَعْلَمِ} تلك جاءت منصوبة، أي أن تلك واو المعية، فأنت مطلوب منك الاثنين مع بعض، جهاد وصبر، فالجهاد وحده ليس كافيًا، لابد من الجهاد والصبر، {وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ}[العصر: ٣].

فقيل أن الفتح الخاص بسورة الفتح تحقق، انظر الإشارة الخاصة به كانت أين؟ في أول سورة فاطر، بعد ذلك شوط طويل من سبع سور متتاليات بدأت بنفس الحروف، ما اسمهم؟ هناك مجموعة سور قبل محمد متتاليات بدأت بنفس الحروف ما اسمهم؟ آل حم، سبع سور يبدأن من أول غافر حتى الأحقاف، بمجرد أن انتهت الأحقاف بدأت سورة القتال –سورة محمد–.

لذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– روي عنه في أكثر من موضع، وخاصة في الخندق، كان يقول للمسلمين (شعارنا إذا بُيتنا) –لو هجموا بالليل– فإن شعاركم –أو في رواية: فإن دعواكم، الدعاء الذي تنادون به– (حم لا ينصرون)[٣].

كان المسلمون يضعون لأنفسهم شعارًا، ماذا معنى أن يضعوا لأنفسهم شعارًا؟ عندما تأتي الحرب ليلًا الناس لا يرون بعضهم، لا يوجد كهرباء، فمن الممكن أن يحدث قتال وتدافع وتداخل بين الناس وبعضهم، المسلمون على المشركين، طبعًا المسلمون لا يلبسون مثلًا الأحمر والكفار يلبسون الأبيض، أو مقسمون أو أشكال مختلفة، لا، هو نفس اللباس ونفس الشكل؛ لذا يحدث تداخل؛ فمن الممكن أن يقتل أحدهم أحدًا بالخطأ، أنت تريد أن تعلم هل هذا معك أم عدوّك؟ ويمكن أن يكون الجيش كبيرًا – عشرة آلاف شخص– ولا توجد بطاقات! لن يقول له أرني بطاقتك، فكان يجب أن يكون هناك شعار

[٣] عن من سمع النبي صلى الله عليه وسلم :إِنْ بَيَّتُّم فليكُنْ شِعارُكم حم لا يُنصَرون.

أبو داود (ت ٢٧٥)، سنن أبي داود ٢٥٩٧ • سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح]

عن من سمع النبي صلى الله عليه وسلم :إِنْ بُيِّتُمُ اللَّيلةَ فقولوا :حم لا يُنصَرونَ

ابن كثير (ت ٧٧٤)، تفسير القرآن ١١٧/٧ **إسناده صحيح**

يعرفه المسلمون مع بعضهم، هذا الشعار يعرفون بعضهم به ويحمّسهم ويستجلبون به النصر، ويشحذهم، وكان أحيانًا (أمت أمت)[٤].

وكان هناك شعارًا وضعه النبي -صلى الله عليه وسلم- (حم، لا ينصرون)، أي بمعاني (حم) نطلب النصر الخاص بالقتال في سورة محمد. وتأمل في الإعجاز بتوافق قول النبي -صلى الله عليه وسلم- مع ترتيب المصحف! (آل حم، لا ينصرون)، لذلك جاءت سورة القتال (سورة محمد) بعد (حم)، وجاءت بعدها سورة الفتح! وبالفعل يأتي الفتح بعد (آل حم)، لذا هناك معانٍ هامة في سور آل حم يأتي بعدها الفتح.

وهناك مجموعة معاني معينة لآل حم -وهي تحتاج إلى فتح من الله علينا إن استمرينا على هذه الجلسات- وترابط آل حم السبعة مع بعضهن، وختام سورة الأحقاف، ثم الوصول إلى {وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلْجِنِّ}[الأحقاف: ٢٩].

فأنت تحاول معهم في الجدال والدعوة، فبدأت سورة غافر بالجدال {مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ}[غافر: ٤]، أنت تعمل معهم في الدعوة والجدال بالحق وبالتي هي أحسن، في سبع سور، ومع ذلك لم ينفع هذا، بل وصلوا إلى قمة الإعراض، فتنتقل إلى الحل الثاني وهو القتال، **فأنت لا تبدأ بالقتال، بل تبدأ بالدعوة أولًا، لأن القتال** -مثل ما سنرى- **هو وسيلة وليس غاية**، وهذا الفرق بيننا وبين الصحابة، وسنرى كيف كانت نظرتهم عن الفتح وما هو؟ وكذلك ما هو الفتح بالنسبة لنا؟ وهذا سنوضحه عندما نصل إلى الخلاف حول كلمة {فَتَحۡنَا لَكَ}، وكيف كان الصحابي يقول للتابعين: نحن كنا نرى الفتح بطريقة وأنتم ترونه بطريقة أخرى! مثلما ورد عن البراء ابن عازب وجابر -رضي الله عنهما-.

[٤] غَزَوْنا مع أبي بَكْرٍ رضِي اللهُ عنه زمَنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فكان شِعارُنا أَمِتْ أَمِتْ.

الراوي : سلمة بن الأكوع | المحدث : أبو داود | المصدر : سنن أبي داود

الصفحة أو الرقم: ٢٥٩٦ | خلاصة حكم المحدث : سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح

ما الذي نتكلم عنه الآن؟ نحن نتحدث عن موضع سورة الفتح في منظومة السور المكية والمدنية التي وردت متتالية.

قلنا: هناك مجموعة من سور آل حم ورد فيها معانٍ معينة من الدعوة إلى الله، والبذل ونصرة الدين، والجدال بالتي هي أحسن، فحينما ينتهي المطاف بإعراض الناس، لَزِمَ الحل الآخر وهو القتال –سورة محمد–، ثم يأتي بعد القتال الفتح، وبعد أن نفتح البلد يجب أن ننظم مجتمعنا، فلا نفتح بلد وراء بلد بدون أن ننظم أنفسنا –لأن من الأخطاء التي وقعت كثرة الفتوحات الإسلامية بدون تنظيم البلدان التي فُتحت– لذلك جاءت سورة الحجرات بعد سورة الفتح مباشرة لوضع قواعد وأخلاق تنظم المجتمع المسلم، لأن الهدف ليس مجرد كثرة الفتوحات.

لذلك من القواعد التي سنخرج بها من سورة الفتح "كل مدد من الله" أي: كل مدد يأتي إليك فهو مِن الله. وهذه قاعدة مهمة جدًا سندرسها بالتفصيل "كل مدد بغير سند فهو بدد" أي: سيذهب، وهذه القاعدة قالها الشيخ البحياوي في تفسير سورة الفتح.

"كل مدد" فعندما يعطيك الله شيئًا ما وأنت ليس لديك الأدوات التي تجعله يستمر، فتعجلك سيجعل هذا الشيء يذهب عنك! لأنك لا تملك ما يجعله يستمر. مثال: إن تعجلت أن تفتح بلد ما ولم يكن لديك مَن يُعلم أهلها وينشر فيهم الدين، فسيذهب منك! "كل مدد بغير سند فهو بدد"!

هذا موضع سورة الفتح في وسط سور القرآن.

❖ ولكن، ما علاقة سورة الفتح بسورة محمد -صلى الله عليه وسلم-؟

السورتان المتتاليتين —سورة محمد ثم سورة الفتح–، ما العلاقة بينهما؟

أنت حينما تقرأ سورة محمد -صلى الله عليه وسلم-، ثم تقرأ سورة الفتح ستجد شيئًا غريبًا جدًا، ***سورة محمد*** تكلم أناسًا متثاقلين عن الجهاد، فتشجعهم وتكلمهم عن ثواب الشهادة في سبيل الله وأن الله سيصلح بالهم ويعطيهم جنات وأنهار في الجنة، وأن الإنسان لا بد له أن يبتلى ليظهر ما إذا كان منافقًا أم مؤمنًا، و{وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ}[محمد:٣١] ستظهر على حقيقتك، و{ذَٰلِكَّ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ}[محمد: ٤]، والحكمة من فرض القتال، فسورة محمد تحثهم على الإقدام.

أما في ***سورة الفتح*** العكس من ذلك! الناس وصلت لدرجةٍ من الحماسة، لدرجة تقول -السورة- له: لا، الآن لا يوجد قتال، قلل من الكلام عن الحمِّية!

سورة محمد فيها إقدام، ***وسورة الفتح*** تعلمه أن يُحجِم، وفيها نوع من الإحجام، كأن العبودية قد تكون في موضع ما إقدامًا وفي موضع آخر تكون إحجامًا، **وعبودية الله تختلف من مكان لمكان ومن زمان لزمان حسب ما يريده الله**، ليست القضية قتال فقط أو إحجام فقط، لا.

وهذا يربي العبد على مراد الله، أنه ينفذ مراد ربنا. وكما سنرى النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلح الحديبية كان عبدًا لله -سبحانه وتعالى- في قمة العبودية، تخلص من مراده ومن أهوائه ومن أمنياته، يبحث عن مراد الله أيًا كان ما هو مراد الله.

فأحيانًا يطلب منك الإقدام وأحيانًا أخرى يطلب منك الإحجام، مثل ما حدث في مكة {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوَاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ}[النساء: ٧٧] وبعد فترة من هذا قال: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ}[النساء: ٧٧]، فالتكاليف تتغير.

أحيانًا الإنسان يُصر على وضع معين وعبودية معينة قد لا يكون هذا هو المناسب ولا يقبل ذلك، لكن **كمال العبودية أن تتخلص من مرادك إلى مراد الله**، تنظر ماذا يريد منك الله وتفعله. إن كان يريد الله منك الإقدام هنا فلتُقدِم، وهنا إذا أراد منك السكون تَسكُن، وهنا إن أراد منك التوقف أو الصبر فتَصبر.

أيضًا من العلاقة بين سورة محمد وسورة الفتح: سورة محمد فضحت المنافقين وطهرت الصف {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [محمد: ٣٠] {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١] وأظهرت المنافقين، فكانت تنزل السورة تفضحهم، {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [محمد: ٢٠] والمرض باطني ولكن السورة جعلتك تراه بعينيك، رأيت الذين في قلوبهم مرض {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [الأحزاب: ١٩] خائف.

فسورة محمد قامت بنوع من تصفية الصف قامت بنوع من التمييز بين المؤمن والمنافق، ودائمًا يأتي الفتح بعد هذا التمييز.

الفتح ينزل على الثلة المؤمنة الخالصة حينما تُصفى من المنافقين، لذلك يقول الله {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} وبعدها قال: {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٤١] فالمحق جاء بعد التمحيص، **يُنقى الصف أولًا ثم ينزل الفتح.**

لذلك عندما حصلت المفاصلة {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [الكافرون: ١-٢] مفاصلة تامة وتمييز تام بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ جاءت السورة التي بعدها (سورة النصر)، وأشار بعض أهل العلم أن الترابط بين سورتي محمد والفتح مثل الترابط بين سورتي الكافرون والنصر، وكما قامت سورة محمد بالتصفية وجاء الفتح بعدها {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} وجاءت المغفرة، كذلك جاءت سورة النصر بالفتح والمغفرة {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ١-٣].

إذًا من الترابط أيضًا: متى يأتي الفتح؟ على الثلة المؤمنة الخالصة، فسنظل نُنقى ونُصفى -نسأل الله الثبات- إلى أن تبقى ثلة مؤمنة ينزل عليها الفتح، وتستحق أن ينزل الفتح عليها.

لذلك وبأبسط الأمثلة: أنت تقوم للصلاة تطلب الفتح بدعاء اسمه دعاء الاستفتاح: (اللهم باعد بيني وبين خطاياي...)[٥] يجب أن تكون طاهرًا حتى ينزل الفتح، تتوضأ وتستفتح وتتطهر من ذنوبك وتطلب أن تُبعد ذنوبك عنك، لماذا؟

لكي تكون أهلًا لنزول الرحمات والفتح، وكذلك الثلة المؤمنة، متى ينزل عليها الفتح؟ عندما تتطهر وتنفض الخبيث ويحدث التمايز ينزل الفتح على هذه الثلة المؤمنة.

أيضًا من الترابط: متى يأتي الفتح؟ كلمة (الفتح) هي من أحب الكلمات إلى قلب المؤمن وهي من أجمل اللحظات التي ينتظرها المؤمن، كلمة سمعها النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان وقعها على قلبه -صلى الله عليه وسلم- أنها كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، أن يسمع {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحا مُّبِينا}.

ستظل تعمل سنين في الدعوة وتنتظر لحظات الفتح، فتكون بشريات، ولكن يلزمها جهد سنين، فسور "آل حم" سبع سور وبعدهم سورة القتال "سورة محمد"، ولهذا يأتي بعدهم الفتح، ولا فتح بدون قتال لذا يجب أن تأخذ بالأسباب.

أيضًا من الترابط بين السورتين -سورة محمد وسورة الفتح-: اسم السورة، من اسم سورة محمد -صلى الله عليه وسلم- وبدايتها {وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّد} [محمد: ٢] فيه كمال الاتباع، **فالفتح يأتي دائمًا بكمال الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم-**، إن كنا نريد الفتح فيجب أن نفعل ما كان يفعله النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة.

وكما قلت كلمة "الفتح" كلمة محببة، ونريد أن نعرف -أثناء تفسيرنا للسورة- ما هي أسباب الفتح؟ نريد من الله أن يفتح لنا في حياتنا، ما هي أسباب الفتح؟

---

[٥] (إذا صلى أحدكم فليقل اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم إني أعوذ بك تصد عني بوجهك يوم القيامة اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم أحيني مسلما وأمتني مسلما).
الراوي: سمرة بن جندب | المحدث: العيني | المصدر: عمدة القاري | خلاصة حكم المحدث: إسناده **جيد**

والصورة الختامية التي جاءت في سورة الفتح لمشهد من هم أهل الفتح، ولماذا نزل عليهم الفتح {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ}[الفتح: ٢٩]، وصف أهل الفتح الذين يستحقون الفتح.

لكي يفتح لك تحتاج أن ترتبط بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لذلك قال بعض أهل العلم هناك إشارة في قصة طالوت وجالوت، قبل ذهاب طالوت للحرب، كانت {ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ}[البقرة: ٢٤٨] وجب الربط بينهم وبين سيدنا موسى، وجب وجود أثَارَة بينهم وبين موسى عليه السلام حتى يفتح لهم. {وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ} ولكن ماذا ترك النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا؟ القرآن والسنة (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي)[٦] ***إذا أردنا أن يُفتح لنا فعلينا بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله.***

لذلك البخاري في بداية باب الجهاد -في تبويب البخاري- عندما تكلم عن الجهاد بدأ بحديث جعله في البداية، قال حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يَأْتِي على الناس زَمَان يَغْزو -أي يجاهد- فِئام مِنَ النَّاسِ، فيسألون...) عندما كان الصحابة ذاهبون للقتال فكان الناس يسألونهم: (هل فِيكمْ مَنْ رأى -وفي رواية: مَن صَحِبَ- رسول الله -صلى الله عليه وسلم-)؟ فيقول الصحابة: (نَعَمْ) فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فيفتح لهم)! فمتى جاء الفتح؟ جاء الفتح مع صحبة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

(ثمَّ يأتي زَمَان على الناس فيغزو فئام الناس فَيقَال لهم: هل فِيكمْ مَنْ رأى -أو من صاحب- مَن صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فيقول التابعين: نَعَمْ، فَيفْتَح لهم، ثمَّ يغزو فئامٌ من الناس فَيقَال لهم: هل فِيكمْ مَنْ صَاحِبَ من صَاحَبَ أَصْحَاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فَيقَال: نَعَمْ، -تابعوا التابعين- فيفْتَح لهم)[٧] في كل مرة ماذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام؟ يقول: (فيفتح لهم).

---

[٦] تركتُ فيكم أمرينِ ؛ لن تَضلُّوا ما إنْتمسَّكتُم بهما : كتابَ اللَّهِ وسُنَّتي ، ولن يتفرَّقا حتَّى يرِدا عليَّ الحوضَ
الراوي : - | المحدث : الألباني | المصدر :منزلة السنة | الصفحة أو الرقم: ١٣ | خلاصة حكم المحدث : إسناده حسن

[٧] يَأْتِي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيَقولونَ: فِيكُمْ مَن صاحَبَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ، ثُمَّ يَأْتِي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيُقالُ: هلْ فِيكُمْ مَن صاحَبَ أصْحابَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ

فجاء الفتح على قدر الارتباط به –صلى الله عليه وسلم–، وهذا من أفضلية القرون الثلاثة الأولى، فعلى قدر تمسكنا بهدي الصحابة والسلف –القرون الثلاثة الأولى– على قدر ما يأتي الفتح، وهناك كلمة عظيمة للإمام مالك بأن: "صلاح آخر الأمة لن يكون إلا بما صلح به أولها".

وهذا أحد أوجه الترابط بين سورة محمد –صلى الله عليه وسلم– وسورة الفتح.

وبالطبع إذا قرأت في التفاسير ستجد أنهم حاولوا الربط بين أول سورة الفتح وأول سورة محمد، وبين ختام سورة محمد وختام سورة الفتح، فبينهما أوجه كثيرة للترابط، والقرآن عظيم، لا يخلق على كثرة الرد، أي: لا يبلى، أي معانيه متجددة، لا تَمل منها، كلما ترجع للسورة ذاتها تجد معانٍ عظيمة وكثيرة.

❖ **نبدأ بالكلام عن ألفاظ السورة وآيات سورة الفتح نفسها.**

{بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ}.

بدأت هذه السورة بقوله –سبحانه وتعالى–، مؤكدًا بحرف التوكيد وبنون العظمة التي أُدغمت في نون التوكيد، {إِنَّا} فكان أصلها "إننا" فأصبحت {إِنَّا}.

يقول العرب: أن من الطبيعي في الكلام ألا تستخدم أسلوب التوكيد عندما تتحدث مع شخص ما إلا إذا كانت هناك أسباب معينة، كأن يكون من أمامك يشك في الكلام، أو ليس مصدقًا لوجود خبر غريب عنه، مثال: أنا إن أكلت طعام الغداء فسأقول لك: أكلت طعام الغداء، ولا يجب أن أقول: إني

لهمْ، ثُمَّ يَأْتِي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيُقالُ: هلْ فِيكُمْ مَن صاحَبَ مَن صاحَبَ أصْحابَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ..

الراوي: أبو سعيد الخدري | المحدث: البخاري | المصدر :صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم : ٣٦٤٩ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

أكلت طعام الغداء لأنني إن استخدمت أسلوب التأكيد فكأنك تشك في كلامي أو أنك لست مصدقًا لأنه غلب على ظنك أنني صائم فكأنه خبر غريب يستحق التأكيد.

فالعلماء من أهل اللغة العربية يقولون: أن استعمال التوكيد له دلالات، فبدأت السورة بالتوكيد وبنون العظمة {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ}.

❖ لماذا بدأت هذه السورة بتوكيد الفتح؟ ولماذا أكد الله -عز وجل- حدوث الفتح؟

وللأسف لن نستطيع أن نستقصي أحداث صلح الحديبية لأنها طويلة، وأثناء تفسيرنا لسورة الفتح سنذكر فقط الموضع الذي سنحتاجه من أحداث صلح الحديبية، لكن بالنسبة لك حتى يستقر الموضوع متكاملًا في ذهنك حاول أن تقرأ في أي كتاب سيرة عن القصة الكاملة لصلح الحديبية، من بداية الرؤيا التي رآها النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن القصة كلها بدأت ~~برؤية~~برؤيا.

والعجيب أن ذِكر ~~الرؤية~~الرؤيا يأتي آخر شيء في السورة {لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ} [الفتح: ٢٧]، وهذا شيء غريب جدًا، أن يرى الرسول -صلى الله عليه وسلم- رؤيا، ما هي الرؤيا؟

أنه سيعتمر هو والصحابة وسيدخلون آمنين، وفي قمة عبودية النبي -صلى الله عليه وسلم- ينهض ويذهب ويُحرم ويلبس لبس الإحرام وينطلق ويسوق الهدي، وقد جاءهم السنة الماضية في الأحزاب عشرة آلاف مقاتل و كانوا مهددين.

ولكن عندما رأى رؤيا من الله فتحرك بسببها، وأخذ معه ألفًا وأربعمائة شخصًا فقط؟! وكان ضدهم في الأحزاب عشرة آلاف! وهذا قمة العبودية! وهناك قاعدة سنتكلم عنها وهي: أن ***المؤمن يُقدِّم أعلى التضحيات بأقل الإشارات***، مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما وضع السكين على رقبة ابنه بسبب رؤيا رآها! ولكن تجد شخصًا آخر معاندًا في تطبيق شرع الله -عز وجل- ويحتاج ألف حجة يراها ويسمعها لكي ينفذ شرع الله -عز وجل-.

فالرسول –صلى الله عليه وسلم– رأى رؤيا فتحرك، وهذه قمة العبودية.

وهو يتحرك في الطريق، قريش تحاول منعه، وترسل أناسًا تصده، ويتعجب الرسول عليه الصلاة والسلام، (يا ويح قريش أكلتهم الحرب، ماذا يضرهم لو خلوا بيني وبين الناس)[٨] أو وبين سائر العرب، هذا هو هم الداعية (خلّوا بيني وبين الناس) هذا هو الفتح الرئيسي الذي يحتاجه الداعية، عندما نُؤتَى هذه الفرصة، يُخلَّى بيننا وبين الناس ونضيعها نحن لا نستحق الفتح، أو أننا لا نفهم أصلًا ما هي قيمة الدعوة، أو ما هي وظيفة الداعية.

لأن الجهاد أصلًا شُرِع لأجل تحقيق هذه الغاية، فلو حُقِّقت بغير جهاد ولا قتال فكفى الله المؤمنين القتال، ولا تتمنوا لقاء العدو، فهذه هي الغاية أصلًا، ولماذا سُمِّي انتشار الدين فتوحات إسلامية؟

لأنهم كانوا واقفين عقبةً بين الناس وبين سماع الدين، فكلمة فتوحات أزالت هذه العقبات، وجعلت الدين يصل إلى أسماع الناس، أزالت المغاليق التي وضعها أعداء الله –عز وجل– حتى لا يصل الدين إلى الناس، فهو وسيلة لتطبيقه للوصول الى غاية معينة، أن يصل الدين للناس.

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– خرج بعد أن رأى رؤيا، قريش حاولت منعه، فأخذ طريقًا آخر ولكنها لم تتركه، أخذوا يرسلون له أناسًا، وأثناء سيره ناقة الرسول –صلى الله عليه وسلم– تبرك، قالوا "خلأت القصواء" فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلق، ولكن حبسها حابس الفيل)[٩] أن هذا قمة الاستسلام لأقدار الله.

---

[٨] يا ويحَ قريشٍ لقد أكلتهم الحربُ ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائرِ العربِ . فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني اللهُ عليهم دخلوا في الإسلامِ وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ ، فما تظن قريشٌ ؟ فواللهِ لا أزال أجاهدُ على الذي بعثني اللهُ به حتى يظهرَه اللهُ أو تنفردُ هذه السالفةُ - يعني الموتَ..

الراوي: - | المحدث: الألباني | المصدر :فقه السيرة | الصفحة أو الرقم :٣٢٤ | خلاصة حكم المحدث: **صحيح** وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية وقد أخرجه البخاري

[٩] خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ، حتَّى إذَا كَانُوا ببَعْضِ الطَّرِيقِ قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ بالغَمِيمِ في خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ. فَوَاللَّهِ ما شَعَرَ بهِمْ خَالِدٌ حتَّى إذَا هُمْ بقَتَرَةِ الجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وسَارَ

النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى إذَا كانَ بالثَّنِيَّةِ الَّتي يُهْبَطُ عليهم منها بَرَكَتْ به رَاحِلَتُهُ، فَقالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فألَحَّتْ، فقالوا: خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لَهَا بخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ، ثُمَّ قالَ: والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا يَسْألُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حتَّى نَزَلَ بأَقْصَى الحُدَيْبِيَةِ علَى ثَمَدٍ قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلْبِثْهُ النَّاسُ حتَّى نَزَحُوهُ، وشُكِيَ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أمَرَهُمْ أنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ ما زَالَ يَجِيشُ لهمْ بالرِّيِّ حتَّى صَدَرُوا عنْه، فَبيْنَا هُمْ كَذلكَ إذْ جَاءَ بُدَيْلُ بنُ ورْقَاءَ الخُزَاعِيُّ في نَفَرٍ مِن قَوْمِهِ مِن خُزَاعَةَ، وكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهْلِ تِهَامَةَ، فَقالَ: إنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بنَ لُؤَيٍّ وعَامِرَ بنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، ومعهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وهُمْ مُقَاتِلُوكَ وصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أحَدٍ، ولَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وإنَّ قُرَيْشًا قدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ وأَضَرَّتْ بهِمْ، فإنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْنِي وبيْنَ النَّاسِ، فإنْ أظْهَرْ: فإنْ شَاؤُوا أنْ يَدْخُلُوا فِيما دَخَلَ فيه النَّاسُ فَعَلُوا، وإلَّا فقَدْ جَمُّوا، وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ علَى أمْرِي هذا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، ولَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أمْرَهُ، فَقالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ ما تَقُولُ.

قالَ: فَانْطَلَقَ حتَّى أتَى قُرَيْشًا، قالَ: إنَّا قدْ جِئْنَاكُمْ مِن هذا الرَّجُلِ وسَمِعْنَاهُ يقولُ قَوْلًا، فإنْ شِئْتُمْ أنْ نَعْرِضَهُ عليْكُمْ فَعَلْنَا، فَقالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنَا أنْ تُخْبِرَنَا عنْه بشَيءٍ، وقالَ ذَوُو الرَّأْيِ منهمْ: هَاتِ ما سَمِعْتَهُ يقولُ، قالَ: سَمِعْتُهُ يقولُ كَذَا وكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بما قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَامَ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ فَقالَ: أيْ قَوْمِ، ألَسْتُمْ بالوَالِدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: أوَلَسْتُ بالوَلَدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فَهلْ تَتَّهِمُونِي؟ قالوا: لَا، قالَ: ألَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أنِّي اسْتَنْفَرْتُ أهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بأَهْلِي ووَلَدِي ومَن أطَاعَنِي؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فإنَّ هذا قدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا ودَعُونِي آتِيهِ، قالوا: ائْتِهِ، فأتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَحْوًا مِن قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذلكَ: أيْ مُحَمَّدُ، أرَأَيْتَ إنِ اسْتَأْصَلْتَ أمْرَ قَوْمِكَ، هلْ سَمِعْتَ بأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فإنِّي واللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وإنِّي لَأَرَى أوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أنْ يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ، فَقالَ له أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ، أنَحْنُ نَفِرُّ عنْه ونَدَعُهُ؟! فَقالَ: مَن ذَا؟ قالوا: أبو بَكْرٍ، قالَ: أمَا والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لكَ عِنْدِي لَمْ أجْزِكَ بهَا لَأَجَبْتُكَ، قالَ: وجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أخَذَ بلِحْيَتِهِ، والمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ علَى رَأْسِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومعهُ السَّيْفُ وعليه المِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أهْوَى عُرْوَةُ بيَدِهِ إلى لِحْيَةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ضَرَبَ يَدَهُ بنَعْلِ السَّيْفِ، وقالَ له: أخِّرْ يَدَكَ عن لِحْيَةِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقالَ: مَن هذا؟ قالوا: المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ، فَقالَ: أيْ غُدَرُ، ألَسْتُ أسْعَى في غَدْرَتِكَ؟! وكانَ المُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا في الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وأخَذَ أمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فأسْلَمَ، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا الإسْلَامَ فأقْبَلُ، وأمَّا المَالَ فَلَسْتُ منه في شَيءٍ.

ثُمَّ إنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أصْحَابَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعَيْنَيْهِ، قالَ: فَوَاللَّهِ ما تَنَخَّمَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وَضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إلى أصْحَابِهِ، فَقالَ: أيْ قَوْمِ، واللَّهِ لَقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوكِ، ووَفَدْتُ علَى قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللَّهِ إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُحَمَّدًا؛ واللَّهِ إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وَضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، وإنَّه قدْ عَرَضَ عليْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا.

فَقالَ رَجُلٌ مِن بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقالوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أشْرَفَ علَى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأَصْحَابِهِ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا فُلَانٌ، وهو مِن قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا له فَبُعِثَتْ له، واسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذلكَ قالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! ما يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إلى أصْحَابِهِ، قالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قدْ قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فَما أرَى أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ.

فَقَامَ رَجُلٌ منهمْ يُقَالُ له: مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ، فَقالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقالوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أشْرَفَ عليهم، قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا مِكْرَزٌ، وهو رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَبيْنَا هو يُكَلِّمُهُ إذْ جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو.

قالَ مَعْمَرٌ: فأخْبَرَنِي أيُّوبُ، عن عِكْرِمَةَ: أنَّه لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِن أمْرِكُمْ. قالَ مَعْمَرٌ: قالَ الزُّهْرِيُّ في حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، فَقالَ: هَاتِ اكْتُبْ بيْنَنَا وبيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الكَاتِبَ، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قالَ سُهَيْلٌ: أمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ ما أدْرِي ما هو، ولَكِنِ اكْتُبْ «باسْمِكَ اللَّهُمَّ» كما كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقالَ المُسْلِمُونَ: واللَّهِ لا نَكْتُبُهَا إلَّا «بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اكْتُبْ «باسْمِكَ اللَّهُمَّ»، ثُمَّ قالَ: هذا ما قَاضَى عليه

مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّهِ لو كُنَّا نَعْلَمُ أنَّكَ رَسولُ اللَّهِ ما صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، ولَا قَاتَلْنَاكَ، ولَكِنِ اكْتُبْ «مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ»، فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واللَّهِ إنِّي لَرَسولُ اللَّهِ، وإنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ «مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ» -قالَ الزُّهْرِيُّ: وذلكَ لِقَوْلِهِ: لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا- فَقالَ له النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: علَى أنْ تُخَلُّوا بيْنَنَا وبيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ به، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّهِ لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولَكِنْ ذلكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: وعلَى أنَّه لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وإنْ كانَ علَى دِينِكَ إلَّا رَدَدْتَهُ إلَيْنَا، قالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كيفَ يُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟! فَبيْنَمَا هُمْ كَذلكَ إذْ دَخَلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ في قُيُودِهِ، وقدْ خَرَجَ مِن أسْفَلِ مَكَّةَ حتَّى رَمَى بنَفْسِهِ بيْنَ أظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: هذا -يا مُحَمَّدُ- أوَّلُ ما أُقَاضِيكَ عليه أنْ تَرُدَّهُ إلَيَّ، فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ، قالَ: فَوَاللَّهِ إذًا لَمْ أُصَالِحْكَ علَى شَيءٍ أبَدًا، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فأجِزْهُ لِي، قالَ: ما أنَا بمُجِيزِهِ لَكَ، قالَ: بَلَى فَافْعَلْ، قالَ: ما أنَا بفَاعِلٍ، قالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قدْ أجَزْنَاهُ لَكَ، قالَ أبو جَنْدَلٍ: أيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، ألَا تَرَوْنَ ما قدْ لَقِيتُ؟! وكانَ قدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا في اللَّهِ، قالَ: فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: فأتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقُلْتُ: ألَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلْتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: إنِّي رَسولُ اللَّهِ، ولَسْتُ أعْصِيهِ، وهو نَاصِرِي، قُلْتُ: أوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بهِ؟ قالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟ قالَ: قُلْتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به، قالَ: فأتَيْتُ أبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يا أبَا بَكْرٍ، أليسَ هذا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلْتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وليسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وهو نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ؛ فَوَاللَّهِ إنَّه علَى الحَقِّ، قُلْتُ: أليسَ كانَ يُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ ونَطُوفُ بهِ؟ قالَ: بَلَى، أفَأخْبَرَكَ أنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به. قالَ الزُّهْرِيُّ: قالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذلكَ أعْمَالًا.

قالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِن قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأصْحَابِهِ: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، قالَ: فَوَاللَّهِ ما قَامَ منهمْ رَجُلٌ حتَّى قالَ ذلكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ منهمْ أحَدٌ دَخَلَ علَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا ما لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، أتُحِبُّ ذلكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ كَلِمَةً، حتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ حتَّى فَعَلَ ذلكَ؛ نَحَرَ بُدْنَهُ، ودَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذلكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا، وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} حتَّى بَلَغَ {بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة: ١٠]، فَطَلَّقَ عُمَرُ يَومَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا له في الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إحْدَاهُما مُعَاوِيَةُ بنُ أبِي سُفْيَانَ، والأُخْرَى صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أبو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِن قُرَيْشٍ وهو مُسْلِمٌ، فأرْسَلُوا في طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقالوا: العَهْدَ الذي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إلى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا به حتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِن تَمْرٍ لهمْ، فَقالَ أبو بَصِيرٍ لأحَدِ الرَّجُلَيْنِ: واللَّهِ إنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هذا يا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقالَ: أجَلْ، واللَّهِ إنَّه لَجَيِّدٌ، لقَدْ جَرَّبْتُ به، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقالَ أبو بَصِيرٍ: أرِنِي أنْظُرْ إلَيْهِ، فأمْكَنَهُ منه، فَضَرَبَهُ حتَّى بَرَدَ، وفَرَّ الآخَرُ حتَّى أتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ رَآهُ: لقَدْ رَأَى هذا ذُعْرًا، فَلَمَّا انْتَهَى إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: قُتِلَ واللَّهِ صَاحِبِي وإنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أبو بَصِيرٍ فَقالَ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، قدْ -واللَّهِ- أوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ؛ قدْ رَدَدْتَنِي إلَيْهِم، ثُمَّ أنْجَانِي اللَّهُ منهمْ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ويْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ! لو كانَ له أحَدٌ. فَلَمَّا سَمِعَ ذلكَ عَرَفَ أنَّه سَيَرُدُّهُ إلَيْهِم، فَخَرَجَ حتَّى أتَى سِيفَ البَحْرِ، قالَ: ويَنْفَلِتُ منهمْ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بأبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِن قُرَيْشٍ رَجُلٌ قدْ أسْلَمَ إلَّا لَحِقَ بأبِي بَصِيرٍ، حتَّى اجْتَمَعَتْ منهمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ ما يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إلى الشَّأْمِ إلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وأَخَذُوا أمْوَالَهُمْ، فأرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تُنَاشِدُهُ باللَّهِ والرَّحِمِ، لَمَّا أرْسَلَ، فَمَن أتَاهُ فَهو آمِنٌ، فأرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَيْهِم، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} حتَّى بَلَغَ {الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح: ٢٤ - ٢٦]، وكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أنَّه نَبِيُّ اللَّهِ، ولَمْ يُقِرُّوا بـ«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وحَالُوا بيْنَهُمْ وبيْنَ البَيْتِ..

الراوي: المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم | المحدث: البخاري | المصدر :صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم:٢٧٣١ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

ولكن النبي –صلى الله عليه وسلم– أراد أن يعتمر ورأى رؤيا، ويتمنى أن يذهب إلى مكة وبلده التي يحبها –صلى الله عليه وسلم–، انظروا إلى قمة الاستجابة، رأى رؤيا فيتحرك، الناقة تبرك يقول لا، إذًا أي خطة سيعرضوها عليّ، صلح سأقبله طالما فيه تعظيم لحرمات الله، لأن حبسها حابس الفيل، الفيل مُنع أن يصل إلى مكة تعظيمًا لحرمات الله، فيل أبرهة، فكذلك الناقة مُنعت و بركت؛ لتعظيم حرماته؛ لذا فأنا سأعظم شعائر الله –عز وجل–.

وفي رواية أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قبل أن تبرك الناقة استشار أبا بكر الصديق في القتال؛ فأشار الصديق –رضي الله عنه– "ما جئنا إلا لنعتمر فلنرى ماذا يريدون ونفعله".

النبي جاء ليعتمر، وبعد قليل من قرار أننا لن نعتمر، تأتي شائعة مقتل عثمان، وسنتكلم عن هذه في البيعة، يقول نعم مبايعة للقتال، بعد قليل يأتي سيدنا عثمان، فيقول لا يوجد قتال ونرجع إلى الصلح.

قمة الاستسلام، قمة المرونة في العبودية، رؤيا فنعتمر، لا يوجد، قال ليست مشكلة، إذًا بيعة لأن سيدنا عثمان أُشيع أنه قُتل، فقال نُقاتل حتى نأخذ بحق أخينا عثمان –رضي الله عنه–، وعندما رجع سيدنا عثمان نرجع للصلح، هذه التنقلات لم يكن يدركها الصحابة، وهو أن تكون لينًا مع أقدار الله ومراد الله –سبحانه وتعالى–.

لذلك استحق –صلى الله عليه وسلم– أن يقال له : {لَكَ} أي لأجلك أنت وحدك جاء هذا الفتح، قمة العبودية، ***ودائمًا الفتح يأتي بعد أن تُظهر كمال الاستسلام***، الفتح يأتي في حياتك عندما تختبر أكثر من اختبار وتنجح فيهم وتظهر كمال الاستسلام وتتخلص من مرادك تمامًا ، {تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً} [القصص: ٨٣] لا أريد شيئًا غير الله.

أحيانًا يكون بداخلك طموحات مُغلَّفة بأغلفة الدين، بمعنى طموحات من الفتك بالأعداء ويمكن أن تصل إلى الغاية بغير ذلك، الغاية الأساسية، لكن لا، أنت بداخلك غضب تريد أن تخرجه، بداخلك أمنية تريد أن تحققها، من الممكن أن تُحقق بطريق آخر، مراد الله يُحقق بطريق آخر، لا، أنت تريد أن تمشي وتخرج ما بداخلك.

فلما كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– في قمة الاستسلام وتخلص من مراده، جاء الفتح في هذه اللحظة {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} عندما أظهر، متى قيلت له الآيات؟

بعد أن انتهى من كل شيء وهو عائد، قيل له: أنت تستحق أن يُفتح لك، ولقد فتحنا لك فتحًا مبينًا، سنتكلم الآن عن شرح {فَتْحًا مُّبِينًا}، متى؟ عندما أظهر كمال العبودية.

أنت متعبد ببر الوالدين الآن، إذًا بر الوالدين، بالدعوة فإذًا بالدعوة، بالصبر فإذًا بالصبر، أنت تمر بمواضع مختلفة في العبودية، فيجب أن تظهر كمال الاستسلام حتى يأتيك الفتح.

فبدأت بوضع غريب، رؤيا ولم تُحقق، وصلح عجيب، وموقف غريب للناقة يرونه أول مرة، فالأحداث الغريبة هذه جعلت الصحابة يحتاجون إلى التأكيد {إِنَّا} والعظمة حتى تستحضروا عظمة الله ولا تشكوا في قدرته.

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} لأنهم في هذه اللحظات يحتاجون من يؤكد لهم الكلام، وكيف أن القرآن يراعي نفوس البشر، يكلمهم لأنهم يحتاجون إلى من يشرح لهم.

لذلك سيدنا عمر بن الخطاب –وأنتم تعلمون القصة المشهورة في الحديبية–، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يأخذ الصلح، وسيدنا عمر لا يقدر أن يستوعب الأمر ويذهب للنبي: "أَوَ لسنا على الحق، ألسنا مؤمنين وهم مشركون، لم نُعطي الدنية في ديننا؟" فالنبي –صلى الله عليه وسلم– يجيبه إجابة واضحة (أنا عبد الله ورسوله ولست أعصيه ولن يُضيعني)[١٠].

[١٠] وثب عمرُ بنُ الخطابِ فأتى أبا بكرٍ قال : يا أبا بكرٍ أليس برسولِ اللهِ ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال أو ليسوا بالمشركين ! . قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنيةَ في ديننا ! . قال أبوبكرٍ : يا عمرُ الزم غرزَه - أمره - فإني أشهدُ أنه رسولَ اللهِ . قال عمرُ : وأنا أشهدُ أنه رسولُ اللهِ ! . ثم أتى رسولَ اللهِ فقال : ألست برسولِ اللهِ ! قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ! قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنيةَ في ديننا ؟ ! . قال أنا عبدُ اللهِ ورسولُه ، ولن أخالفَ أمرَه ، ولن يضيعني..
الراوي: - | المحدث: الألباني | المصدر :فقه السيرة | الصفحة أو الرقم : ٣٣٢ | خلاصة حكم المحدث: صحيح

ويذهب للصديق ويقول له نفس الكلام، سيدنا عمر غير متخيل، ويذهب لأبي جندل، والنبي عليه الصلاة والسلام يُرجع أبا جندل في صلح الحديبية، وأبو جندل يصرخ: "أتتركوني أتردونني إليهم؟" وسيدنا عمر بن الخطاب يمشي بجانب أبي جندل ويحرك السيف ويقول له " إنما دم أحدهم كدم كلب " ماذا يعني؟ خذ السيف واقتله، لأنه لو خرج سهم واحد من المسلمين كانت انتهت، كل هذا كان سيذهب، شخص واحد لا يتحكم في أعصابه من المسلمين، يخرج سيفه أو يضرب سهمًا كانت ستنتهي.

وهذه قيمة السكينة التي أرسلها الله عليهم، عكس الحمية التي كانت في قلوب المشركين، ففعلًا ترتيب عجيب حدث فكانوا يحتاجون إلى من يؤكد لهم.

بعد كل هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- تنزل عليه سورة الفتح، أول شخص يناديه عمر؛ ليست الفكرة أن يقول له انظر كيف أخطأت؟ لا، ذهب إليه وأفهمه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان أول من ناداه سيدنا عمر فبحث عنه، قال تعالى يا عمر وقرأ عليه هذه الآيات، بأبي وأمي -صلى الله عليه وسلم-، معلم -صلى الله عليه وسلم-، مُربي، هو يخاف عليه ويريده أن يفهم ما حدث، لم يقل له: ألم أقل لك؟ كان يجب أن تسكت، لا، ولكن قرأ عليه السورة، وسيدنا عمر ظل يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم-، يسأله فلم يجيبه، ثلاثًا حتى إذا نزلت الآيات، سيدنا عمر خاف وخرج في أول الجيش، خشي من أن ينزل فيه قرآن.

فلما نزل القرآن والنبي -صلى الله عليه وسلم- بحث عنه خاف، قال سينزل في آيات من المنافقين، يُفاجأ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ عليه الآيات ويبشره بنفس البشرى التي بُشِّر بها النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فكان الصحابة يحتاجون إلى تأكيد، نحن نمر بأوقات عصيبة، أحيانًا تحتاج من يؤكد لك الحقائق التي تعرفها، من يؤكد لك أن الدين سينتصر، أنت تحتاج لتسمع هذه الحقائق، من كثرة ما ترى من استضعاف ومن أخبار تسوءك، أحيانًا تحتاج إلى من يؤكد لك الحقائق.

لذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يقسم عندما كان يقسم المشركون، كما في آخر سورة إبراهيم {أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ}[إبراهيم: ٤٤] كانوا يحلفون أن ما لهم من زوال، فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقسم ويقول (والله ليتم الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[١١].

هم يعلمون أن الدين سينتصر لكن كان أحيانًا يحتاج لأن يسمعها بصيغة التأكيد بل بصيغة القسم، فبدأت السورة {إِنَّا}بنون العظمة {فَتَحْنَا لَكَ}.

قلنا أربع سور في القرآن بدأت ب {إِنَّا} بنفس التأكيد وبنون العظمة، ما هي؟ نوح، الفتح، القدر والكوثر. تجد أن ثلاثة منهم عطايا (الفتح والقدر والكوثر) شيء خاص بالنبي –صلى الله عليه وسلم–، وواحدة فيها تعب الدعوة {إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا}[نوح: ١]، وتفاصيل تعب الدعوة ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا، كأن هذه العطايا في الدنيا والدين والآخرة، القدر والفتح والكوثر تأتي بعد جهد مضنٍ في الدعوة إلى الله.

فأنت لو أردت بعظمته –سبحانه وتعالى– أن تنال هذه العطايا لابد أن تتعب في نصرة دينه –سبحانه وتعالى–، هناك عطايا خاصة لأهل الدعوة، عطايا خاصة لهم، الذين تعبوا لكي ينصروا دين ربنا {رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ}[هود: ٧٣]، أي أهل بيت النبوة والدعوة أنتم لكم عطايا مخصوصة فلا تتعجبوا مما يحدث لكم {إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ}[هود: ٧٣] أي يحمد لكم أفعالكم فيعطيكم ويثيبكم عليها فلا تتعجبوا من عطايا الله لأهل الدعوة، هذا فضل يعطيه الله –عز وجل– لمن يشاء، فالتأكيد في الوحي في القدر والفتح –والفتح هذا يشمل فتوحًا كثيرة– والكوثر.

---

[١١] شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ..

الراوي: خباب بن الأرت | المحدث: البخاري | المصدر :صحيح البخاري| الصفحة أو الرقم: ٦٩٤٣ | خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

والعجيب أن التأكيد أيضًا في الكوثر، أن وضع مكة ضرب وتعذيب وتشريد، وأولاد النبي -صلى الله عليه وسلم- يموتون فيقولون عليه "أبتر"، فتأتي السورة وتقول لا، ليس هو الأبتر، بل {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]، ولسوف يعطيك الله -عز وجل- نهرًا في الجنة عدد آنيته -الأكواب- كعدد نجوم السماء.

وكأنها بشرى أن أتباعه سيكونون مثل نجوم السماء، لكن كيف هذا ونحن مستضعفون في الأرض؟ فكانت البشرى تحتاج إلى تأكيد { إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ} [الكوثر: ٢-٣].

وقيل أن {وَٱنْحَرْ} بشرى بصلاة العيد التي يجتمعون فيها، فبدأت سورة الكوثر بمنظر اجتماعهم على نهر الكوثر مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجنة، ثم ثنّت بمنظر اجتماعهم في صلاة العيد ثم ختمت بمشهد الأبتر المقطوع الذي لن ينفعه أتباعه بشيء، المشرك الذي عادى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هذه الوعود كانت تحتاج إلى تأكيد؛ لأن الظاهر مخالف وهذه تحتاج فقه في التعامل مع وعود الله، أحيانا يأتي وعد من الله فنستغرب أين هذا الوعد {سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ} [القمر: ٤٥] فسيدنا عمر يستغرب أي جمع سيولي؟ نحن نُضرَب في مكة، فلما كانت بدر تذكرها عمر.

المشكلة أننا نستعجل على حدوث الوعد، وأحيانًا نفعل أكثر من ذلك، ليس فقط نستعجل، مثلما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لخباب (ولكنكم تستعجلون) أحيانًا نفعل شيئًا آخر أن الوعد مثلًا الله ينصر أهل الإيمان أن الوعد يكون مطلقًا، ليس محددًا مثل بالضبط لما قال الله {الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} [الروم: ١-٣].

الصديق -رضي الله عنه- لما نزلت هذه الآيات، راهن المشركين أن الروم سينتصرون بعد ست سنوات، ماذا حدث هنا؟ تدخل في تحديد الوعد، أي لما ربنا قال أنه ينصر أهل الإيمان وأنت تحدد طائفة معينة

هي التي ستنتصر! كيف عرفت أنهم اكتملوا، وكملوا النصاب وكملوا المواصفات، ولا توجد سنة أخرى تعارضها؟ سنن ربنا تعمل مجتمعة، وأنهم لم يفعلوا ذنبًا معيناً، كيف عرفت أن كل ذلك تحقق؟

لما تدخل الصديق وهو من هو في تغيير شيء بسيط جدًا في الوعد، كاد الشك أن يدخل في قلوب بعض أهل الإيمان، من أسباب أن أهل الإيمان أنفسهم يشكون في الدين أننا نتدخل في الوعود، أو نسقط وعود ربنا على طائفة معينة، هي وعود عامة، فنقول لا، أن هذه الجماعة لابد ستنتصر وأن الحرب هذه سينتصرون فيها، كيف عرفت؟

عندما ذهب المسلمون إلى أُحد معتقدين أن من سنن ربنا أن دائمًا أهل الإيمان سينتصرون على أهل الكفر، هم يعتقدون هذا؛ لأن الغزوة الماضية كانت بدرًا وانتصروا بكل سهولة، فذهبوا إلى أحد في قمة الطمأنينة، نحن مؤمنون وهم كفار، نحن معنا النبي فبالتأكيد سننتصر، فغُلبوا .. ثم !! {أنى هذا}؟ فيسأل "أو لسنا على الحق"؟ أليس من المفترض أن أهل الإيمان ينتصرون دائمًا أم ماذا؟

لا، ليس دائمًا، هناك سنن أخرى، يمكن أن تقوم بمعصية، يمكن أن تُؤجل {وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ}[آل عمران: ١٤٠] هذا كان شرح آيات آل عمران التي تشرح لهم، أنتم تفهمون خطأ أنتم أخطأتم.

لذلك ماذا قال لهم ربنا؟ أنتم الذين غيرتم وليس أنا {وَلَقَدْ} لام قسم وقد التأكيد {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ}[آل عمران: ١٥٢] إياكم أن تظنوا في وعد الله، لا تسيء الظن بالله؛ لذلك من أوصاف المنافقين التي جاءت في السورة، أنه سيء الظن بالله، يسيء الظن، يقول لا، لا يمكن أن يستمر هذا الدين، لا يمكن أن ينتشر.

فبدأت السورة بالتأكيد {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} العلماء اختلفوا ما المقصود بالفتح؟ هل هو صلح الحديبية؟ نزلت عليه السورة وهو عائد من صلح الحديبية على الراجح من الأقوال، هل المقصود من "الفتح":

- أن الصلح الذي تم هذا، والذي لا تعتبرونه فتحًا سيكون فتحًا وأنتم غير منتبهين؟
- أم أن هناك فتحًا سيحدث وهذه بشرى؟ و{إِنَّا فَتَحْنَا} بمعنى إنا سنفتح، ولكن لما كان الزمان عند الله –عز وجل– الماضي مثل المستقبل، فالله –عز وجل سبحانه وتعالى– يفعل ما يشاء، وأنه إذا قضى شيئًا سيتحقق، فتأتي وعود المستقبل بصيغة الماضي {أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ}[النحل: ١] فـ {إِنَّا فَتَحْنَا} قيل بمعنى إنا سنفتح لك مكة.

حسنًا، وهو عائد من الصلح، عشر سنين، صلح الحديبية، وهم نقضوه بعد ذلك، حدث شيء، الله رتب شيئًا، وحدثت إشكالية نقض بها الصلح، لم يستمر، بعد سنتين تقريبًا، حاول أن تتخيل النبي – صلى الله عليه وسلم– وهو عائد وكان يتمنى دخول مكة، كان يتمنى أن يكسر الأصنام، وكان يتمنى – قبل أن يموت– أن يرى الكعبة بدون ولا صنم، والنبي –صلى الله عليه وسلم– تقريبًا كان عمره كم وهو في الحديبية؟ تقريبًا تسع وخمسون، الحديبية سنة كم؟ السنة السادسة من الهجرة، وهناك قبلهم ثلاث عشر سنة في مكة، ثلاثة عشر وستة بعد الأربعين فيكون –عمره– تقريبًا تسع وخمسون، وعشر سنين صلح، إذًا سيكون عمره تسعة وستون وماذا بعد العشرة؟ ماذا سيحدث لأجل مكة ؟

أنت إذا جلست تحسبها قد تيأس، فربنا قال له {إِنَّا فَتَحْنَا}، هي ستُفتح، {وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا} كيف سيحدث هذا؟ فالنبي –صلى الله عليه وسلم– استبشر، وقبل البشرى، وقال (نزلت علي آية أحب إليَّ من الدنيا وما فيها)[١٢].

النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يقل هذا بعد فتح مكة، لا، بل وهو عائد من الحديبية لم يرى شيئًا بعد.

بعد ذلك من الفتوح أن الناس دخلت في دين الله أفواجًا، و أن أضعاف أضعاف الناس التي أسلمت في الفترة الماضية دخلوا الإسلام –بعد الحديبية–، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص دخلوا في الإسلام، ووفود أتت والنبي –صلى الله عليه وسلم– تكلم مع بعض الناس، وذهبوا إلى خيبر.

[١٢] سبق تخريجه الحديث رقم (١)

كل هذا حدث فيما بعد، فالنبي صلى الله عليه وسلم رضي بالبشرى واستبشر وهو لم يرى شيئًا بعد، هؤلاء هم أهل اليقين، هو موقن أنه {إِنَّا فَتَحْنَا} أي سنفتح، موقن أنه سيحدث فتح ، كيف؟ لا يعرف، ربنا سيدبرها، هو يملك كل شيء، أنت لا تعلم كيف سيرتبها.

{إِنَّا فَتَحْنَا} الفتح أصلًا في اللغة إزالة الشيء المغلق، بمعنى أن هناك أمر موجود ، يوجد بركات، لذلك ربنا قال {مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ} [فاطر: ٢] فالرحمات كثيرة وموجودة، أنت من تقفلها بذنوبك، سبق قلنا أن دعاء الاستفتاح، طلب الفتح ماذا تفعل؟ تتخلص من ذنوبك، فينزل الفتح، لأن الأصل في المعاملات هي الرحمة، رحمته -سبحانه وتعالى- سبقت غضبه.

فالفتح أن الله -عز وجل- قد أذن لشيء أن يحدث، والشيء المغلق سيبدأ يُفتح، هذا المغلق قد يكون قلوب الناس المقفولة، أن صلح الحديبية فيه اعتراف من قريش، اعتراف من مكة بوجود المدينة وأنهم قوة معتبرين، وحدوث الهدنة والهدوء فسمع الناس عن الإسلام.

كثير من أهل العلم كالإمام الزهري يقول: أي إنسان كان عاقلًا يعطي لنفسه فرصة في هذه الفترة يسمع عن الإسلام كان يُسلِم مباشرة، وانتشر الإسلام انتشارًا رهيبًا، ومن رحمة ربنا لو كانوا جاهدوا في صلح الحديبية وحدث جهاد كانت قوتهم ستضعف، فعندما يذهبوا لخيبر سيكونون ضعفاء، فادخر الله -عز وجل- قوتهم لخيبر، وطرد اليهود وعاد منتصرًا -صلى الله عليه وسلم-.

فأنت لا تعلم ما هو مدخر لك {وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨]، أحيانا أنت تتمنى شيئًا، ويتأجل، فتظل حزينًا، أنت لا تعرف أين الخير {وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ} [الإسراء: ١١] وربنا ذكر لنا أحد الحكم التي بسببها تم تأجيل هذا الفتح، فتح مكة، سنتكلم عنها في آخر السورة إن شاء الله.

{إِنَّا فَتَحْنَا} فربنا أزال أشياء كانت موجودة تسبب الإغلاق، هل قلوب الناس تحب الدين؟ هل إزالة اليهود؟ هل بشرى بفتح مكة؟ انتشار الدعوة؟

أغلبهم قال انتشار الدعوة، وقيل كل هذا فتح، لأن ربنا قال {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} بدون ذكر المفعول به، فالفاعل لفظ الجلالة الله أو نون العظمة، والفعل الفتح فيبقى المفعول به {فَتَحْنَا لَكَ} ماذا؟ هل مكة؟ هل قلوب الناس؟ ربنا لم يذكر، هل خيبر؟ لم يقل.

فقالوا إذًا نجعله فتحًا عامًا، {فَتْحا} ماذا يسمونها في اللغة ؟ ما هو إعراب فتحًا؟ مفعول مطلق.

ما معنى مفعول مطلق؟ نحن نريد أن نتذوق اللغة، كلمة مطلق أصلًا ما معناها ولماذا سموه مطلقًا ؟

قالوا سموه مطلقًا، أي أطلق من كل قيد فالمفعول به يقيد الفعل.

فربنا –سبحانه وتعالى– لما قال على الصحابة في مدحهم قال {وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلا}[الأحزاب: ٢٣] {تَبْدِيلا}: مفعول مطلق،

لو كان ربنا قال وما بدلوا في الشريعة فقد قيد الأمر، بهذا يسمى تقييد، فالمفعول به أو المفعول فيه أو المفعول معه، سواء ظرف الزمان أو المكان، كل هذه أنواع وألوان من تقييد الفعل، بأن الفعل يكون مقيدًا، فمطلق أي بدون أي قيد.

فكلمة {وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلا} **أي** لم يقوموا بأي تبديل على الإطلاق، ففعل منطلق.

كما يقال مثلًا لقد ضربته ضربًا أي ظللت أضربه كما أشاء، منطلق. ضربًا هذه مفعول مطلق. لقد أكلت أكلًا، أكلًا هنا مفعول مطلق، لم يحدد نوعًا معينًا من الأكل، فالمقصود أنني لم آكل نوعًا محددًا، لم أقيد نفسي تمامًا، كنت منطلقًا، هذا هو المفعول المطلق.

ففتحنا فتحًا والوصف مبينًا، فتح في كل شيء، لذلك الذي اختار هنا العموم كان أوسع في الدليل وأوفق في الاختيار، لأن المفعول المطلق، أي من كل قيد، فتوح في كل شيء، في الدعوة وفي قلوب الناس

وفي خيبر وفي اليهود، في كل شيء، بل حتى قيل في قول لبعض أهل العلم، أن الروم انتصرت على فارس ليس في غزوة بدر بل في زمن صلح الحديبية.

على خلاف ما بين قولين، هل وعد الروم أنها تنتصر على فارس حدث في يوم بدر أم حدث في يوم الحديبية؟ على خلاف، الإمام الشعبي قال: حدث ذلك في يوم الحديبية، وهذا أحد أنواع الفتوح التي حدثت وكانت بشرى للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

ففتح عام {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} -صلى الله عليه وسلم-، حرف جميل جدًا: لأجلك، مثل {إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ}[الكوثر: ١] لك أنت، الكوثر خاصتك، {مَا وَدَّعَكَ}[الضحى: ٣] هناك سور خالصة للنبي -صلى الله عليه وسلم- مثلما يوجد آيات خالصة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وحق له ذلك -صلى الله عليه وسلم-، كمال العبودية وكمال الاستسلام فلأجلك جاء هذا الفتح، -صلى الله عليه وسلم-.

انظر إلى الحب والود من ربنا للنبي -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} لأجلك، فتحًا مبينًا ظاهرًا، أي الشاكون الآن في الفتح سيأتي زمان ويتضح لهم بيانًا واضحًا قيمة هذا الفتح، مبينًا، لا يشك فيه أحد، فإذا كان الآن بعض الناس مرتابة ولا تفهم أين الفتح، سيأتي وقت ويكون الفتح مبينًا، حتى المنافقين الذين شكوا في الفتح سيأتي يوم ويعلموا أن هذا كان فتحًا مبينًا، وقد كان، سواء فتح مكة أو الحديبية أو انتشار الدعوة.

فلذلك قالوا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء في الحديبية ومعه ألف وأربعمائة، ثم جاء فتح مكة بعشرة آلاف مقاتل قيل أن أغلبهم أسلم في هاتين السنتين، هل تتخيل ذلك؟ انظر إلى القفزة التي حدثت في الدعوة.

لماذا حدث هذا؟ لأننا وصلنا للناس.

هناك أقوال كثيرة في الفتح أشهرها الجمهور على أنه صلح الحديبية، هذا هو المقصود به الفتح، وأن هذا كان فتحًا لانتشار الدعوة.

لذلك البراء ابن عازب في البخاري، يقول لأحد التابعين: أنتم تعدون الفتح فتح مكة، وكان فتح مكة فتحًا، وإننا كنا نعد الفتح يوم بيعة الرضوان، وجابر أيضًا يقول: تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح الحديبية والحديبية بئر، وشرح قصة معينة سنذكرها.

الصحابة عندما تكلموا عن الفتح، تكلموا عن أمرين، الفتح بالنسبة لهم أمرين، أن يرضى الله عنهم وأن يصلوا بالدين للناس، هذا هو الفتح عندهم.

متى يشعر أن ربنا فتح له؟ عندما يرضى ربنا عنه "بيعة الرضوان" وأن أستطيع أن أوصل الدين للناس، هذا هو الفتح.

ليست الفكرة أنني انتقمت، ليس هذا هو مفهوم الفتح عنده، بالنسبة لنا نفكر في "أنا أريد أن آخذ حقي".

أنا لا أقول أن هذا حرام، ولكن نقول أن هناك أكمل من ذلك، هم كانوا الفتح عندهم أمرين، بيعة الرضوان ووصول الدعوة للناس، هذا كان الفتح عندهم، هذا الذي جعل جمهور المفسرين يختار أن الفتح هنا أساسًا الحديبية ثم جاءت فتوح مكة أو خيبر أولًا، وعام الوفود، كل هذه فتوح جاءت بعد ذلك.

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحا مُّبِينا} ظاهرًا، {لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ} اللام: المفسرين وقفوا معها كثيرًا جدًا، هم يتعجبون، أن كلمة {لِّيَغْفِرَ} من الطبيعي أن يُقال قبلها أنت فعلت كذا.

فالمغفرة تأتي على طاعة، فربنا يغفر لك لماذا؟ أنت مثلًا دعوت؟ مثلما سألت أمنا عائشة النبي -صلى الله عليه وسلم-: لو ليلة القدر، ماذا أقول؟ فقال (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[١٣] لذا فهم يستغربون، فعل من أفعال الله وتأتي لام ثم تأتي المغفرة، فاستغربوا، كان من الطبيعي أنك عملت كذا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فعل من النبي -صلى الله عليه وسلم- ويأتي بعده عطايا من الله، إنما عطية من الله ثم تأتي عطية أخرى من الله.

فالعلماء هنا قالوا لا،يوجد محذوف، وهناك غرض من حذفه؛ فظلوا يبحثون، ما هذه اللام؟ هل هي لام "كي" تعليل ؟ بمعنى هل فتحنا لك كي نغفر لك (النبي -صلى الله عليه وسلم-)؟ ،

هي المغفرة أني أنا الذي أعمل أم ربنا الذي يعمل حتى يغفر لي الله؟

فلذلك هذه تساؤلات جعلتهم يقفون هنا، جعلتهم يبحثون ويفكرون، **فمثلًا**:

- الإمام الطبري قال: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} لتكثر من الشكر والحمد فلما تكثر جدًا من الشكر والحمد، يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم النعمة وسنرى الأربعة عطايا التي جاءت بعد الفتح وهي "المغفرة والنعمة التامة والهداية على الصراط المستقيم والنصر العزيز" هذه الأربع عطايا.
- لكن اعترض عليه كثير من المفسرين خاصة ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز، قال كيف؟ فأي شخص ربنا يعطي له نعمة يشكره بعدها، هذا ليس أمر خاص بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.
- وقيل "أنت جاهدت وتعبت وبذلت، ففتحنا لك لنغفر لك"

فماذا حذف من السياق؟

المجاهدة وبقي الفتح عشان حتى نرتبط بالفتح وليس بالجهد.

[١٣] قلْتُ: يا رسولَ اللهِ، أرأَيْتَ إنْ علِمْتُ أيَّ ليلةٍ ليلةَ القدرِ ما أقولُ فيها؟ قال: قولي: اللَّهمَّ إنَّكَ عفُوٌّ تُحِبُّ العفْوَ، فاعْفُ عنِّي..
الراوي: عائشة أم المؤمنين | المحدث: الترمذي | المصدر :سنن الترمذي | الصفحة أو الرقم : ٣٥١٣ | خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح
التخريج: أخرجه الترمذي (٣٥١٣) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٧١٢)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وأحمد)٢٥٣٨٤)

مرة ثانية، قالوا أن أصل السياق كان "أنت جاهدت وبذلت وتعبت فجاء الفتح بعدها فجاءت المغفرة المغفرة جاءت لأن ربنا فتح، وكأن كل مجهود بدون فتح قد لا يعطي ثماره "وإن لم يكن من الله عونًا للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده".

لو ربنا لم يفتح عليك أنت يمكن أن تضيع، فقالوا أن الحذف هنا حتى نرتبط بالفتح، أي نجاهد ونبذل، مع أن السورة التي قبلها هي اسمها محمد اسمها سورة القتال، فجاء الفتح بعد قتال محمد -صلى الله عليه وسلم-، هو الفاعل -صلى الله عليه وسلم- وليس المفعول، أي أنه -صلى الله عليه وسلم- هو بذل وجاهد وقاتل وخرج من بيته {كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ}[الأنفال: ٥] {وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ}[آل عمران: ١٢١] وبذل لنصرة الدين -صلى الله عليه وسلم-، ففتح الله له ثمرة لهذا الجهد وغفر له، فحُذفت كلمة المجاهدة حتى نتعلق نحن بالفتح لا بالجهد، نتعلق بتوفيق الله لا بجهدنا نحن.

وقيل أن هناك أمورًا في الدين لن تستطيع أن تفعلها أبدًا إلا عندما يفتح لك الله، نعم إذا كانت لديك أمنية كبيرة من الدنيا ومت قبل أن تفعلها، ستأخذ ثوابًا، لكن من كرم ربنا لك، أن يحقق لك هذا في حياتك.

مرة ثانية، النبي الذي يموت ويأتي يوم القيامة ليس معه أحد، والنبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، هو يأخذ ثوابًا عظيمًا، لكن كمال الثواب مع كمال الفتح، لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتمنى دائما أن يكون أكثر الأنبياء تابعًا، فقال -صلى الله عليه وسلم- في أكثر من موضع في حديث البخاري ومسلم (ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[١٤].

[١٤] ما من نبيٍّ من الأنبياءِ إلَّا وقد أوتيَ من الآياتِ ما آمنَ على مثلِهِ البشرُ ، وإنَّما كان الَّذي أوتيتُهُ وحيًا أوحاهُ اللهُ إليَّ ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعًا يومَ القيامةِ.

الراوي: - | المحدث: ابن تيمية | المصدر :الجواب الصحيح | الصفحة أو الرقم: ٣٨٠/٦ | خلاصة حكم المحدث: **صحيح**

وفي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- (انظر عن يمينك) في المعراج (انظر عن يسارك) فرأى السواد الأعظم (فرجوت أن تكون أمتي كأمة بني إسرائيل)[١٥]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتمنى أن تكون أمته، فأشار الله -عز وجل- أن أمته أعظم من ذلك، ففرح النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فكمال الثواب يأتي مع كمال الفتح، فهناك ثواب في الدين وهناك مقامات عالية في الدين، لن تستطيع أن تحصل عليها تحقيقًا إلا بعد توفيق الله -عز وجل-، فربنا يقول له أنا فتحت لك حتى تكمل دينك ويتم الله -عز وجل- نعمه عليك وتنال أعظم القُربات وتأخذ أعظم الفتوحات، وتحصل على أعلى النصر وتسبق كل الأنبياء، لأجل ذلك فتحت لك حتى تحصل على هذه المغفرة وتسبق كل البشر وهذا الفتح فتحته لك لأجل جهادك، الذي هو محذوف أيضًا.

لذلك نفهم من كلمة {فَتَحْنَا لَكَ} بمعنى فعلت لك ذلك حتى تنال ما لم ينله أحد من البشر، أكثر الأنبياء تابعًا وأعلى أنواع الهداية.

في أوقات الاستضعاف مثلاً، في مكة، هناك عبوديات لا يستطيعون أن يؤدونها، الزكاة والقصاص وما إلى ذلك، فالذي يموت قبل أن ينفذ هذه العبادات يأخذ ثواب أنه كان يتمنى أن يعملها، لكن الذي يُمكن ويؤدي هذه العبادات يأخذ ثوابًا أعلى.

مرة ثانية، أليس الذي يتمنى أن يكون معه مال ينفقه في سبيل الله يأخذ ثوابًا، لكن الذي يملك فعلًا المال وينفقه في سبيل الله ثوابه أعلى، هما في الأجر سواء قيل في حب البذل، إنما تفاصيل البذل يأخذها من بذل.

---

[١٥] خَرَجَ عَلَيْنَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النبيُّ معهُ الرَّجُلُ، والنبيُّ معهُ الرَّجُلَانِ، والنبيُّ معهُ الرَّهْطُ، والنبيُّ ليسَ معهُ أحَدٌ، ورَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فقِيلَ: هذا مُوسَى وقَوْمُهُ، ثُمَّ قيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، ومع هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ ألْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بغيرِ حِسَابٍ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ ولَمْ يُبَيَّنْ لهمْ، فَتَذَاكَرَ أصْحَابُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقالوا: أمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا في الشِّرْكِ، ولَكِنَّا آمَنَّا باللَّهِ ورَسولِهِ، ولَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أبْنَاؤُنَا، فَبَلَغَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَتَطَيَّرُونَ، ولَا يَسْتَرْقُونَ، ولَا يَكْتَوُونَ، وعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: أمِنْهُمْ أنَا يا رَسولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أمِنْهُمْ أنَا؟ فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ..

الراوي: عبدالله بن عباس | المحدث: البخاري | المصدر :صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ٥٧٥٢ |خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

والدليل على ذلك الفقراء عندما حزنوا وذهبوا للنبي –صلى الله عليه وسلم– وقالوا يا رسول الله (ذهب أهل الدثور بالأجور)[١٦]

بمعنى أن أصحاب الأموال يأخذون حسنات أكثر منا وينفقوا منها في سبيل الله ونحن الفقراء ليس معنا مال، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– قال لهم على شيء (سبحان والحمدلله والله أكبر ثلاث وثلاثين مرة بعد كل صلاة)، حتى تعادل الإنفاق، فعلمها الأغنياء، فحزن الفقراء وقالوا (يا رسول الله ، قالوا مثل ما قلنا فقال رسول الله ذاك فضل الله يؤتيه من يشاء)[١٧].

هذه هي {فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ}[المائدة: ٥٤، الحديد: ٢١،الجمعة: ٤] أن ربنا يتم عليك شيئًا ويفتح لك شيئًا ، يجعلك تعمل عبادات في الدين غيرك لم يعملها لأنه لم يُفتح له ليس لأنه سيّء.

ففتحنا لك أي من دون الأنبياء، فأنت الوحيد الذي طبق كل أمور الدين، كل شيء في الشرع، فدخل النبي مكة ولم يدخل موسى عليه السلام القدس، ومات وقال لما أيقن أنه سوف يموت قبل أن يدخلها قال "رب أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر" طلب أن يموت بجواره، ومات في التيه عليه السلام، فكان من تمام نعمة الله على محمد –صلى الله عليه وسلم– أن فتح له مكة.

---

[١٦] -أنَّ الفقراءَ قالوا لَه: يا رسولَ اللَّهِ ذَهبَ أَهلُ الدُّثورِ بالأجورِ. يصلُّونَ كما نصلِّي ويصومونَ كما نصومُ ولَهم فضولُ أموالٍ يتصدَّقونَ بِها ولا نتصدَّقُ فقال: ألا أعلِّمُكم شيئًا؟ إذا فعلتُموهُ أدرَكتُم بِهِ من سبقَكم ولم يَلحقْكُم مَن بعدَكم إلَّا من عملَ مثلَ عملِكم فعلَّمَهم التَّسبيحَ المائةَ في دبرِ كلِّ صلاةٍ. فجاءوا إليْهِ فقالوا: إنَّ إخوانَنا من الأغنياءِ سمِعوا ذلِكَ ففعلوهُ فقال: ذلِكَ فضلُ اللَّهِ يؤتيهِ مَن يشاءُ.
الراوي: - | المحدث: ابن تيمية | المصدر :مجموع الفتاوى | الصفحة أو الرقم : ١٢٧/١١ | خلاصة حكم المحدث: هذه الزيادة في صحيح مسلم من مراسيل أبي صالح

[١٧] جاء الفقراءُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا: ذهَب أهلُ الدُّثورِ مِن الأموالِ بالدَّرجاتِ العلا والنَّعيمِ المقيمِ يُصلُّون كما نُصلِّي ويصومون كما نصومُ ولهم فضولُ أموالٍ يحجُّونَ بها ويعتمِرونَ ويُجاهدونَ ويتصدَّقونَ قال: (أفلا أدُلُّكم على أمرٍ إنْ أخَذْتُم به أدرَكْتُم مَن سبَقكم ولم يُدرِكْكم أحدٌ بعدَكم وكُنْتُم خيرَ مَن أنتم بينَ ظهرَيْه إلَّا أحدٌ عمِل بمثلِ أعمالِكم ؟ تُسبِّحون وتحمَدونَ وتُكبِّرون خلْفَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ).
الراوي: أبو هريرة | المحدث: ابن حبان | المصدر :صحيح ابن حبان | الصفحة أو الرقم: ٢٠١٤ | خلاصة حكم المحدث: **أخرجه في صحيحه**

إذًا {فَتَحْنَا لَكَ} حتى تتم دينك وتتم الشرع، ويتم الله -عز وجل- نعمته عليك، فتفعل أفعالًا من الدين بسبب هذا الفتح، فالنبي -صلى الله عليه وسلم-، أشرف الخلق -صلى الله عليه وسلم- كانت نعمة الله -عز وجل- عليه عظيمة أن فتح له هذه الفتوح وفتح له مغاليق القلوب.

لذلك مات إبراهيم عليه السلام قبل أن يحدث له مثلما حدث للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ومات موسى عليه السلام ومات عيسى عليه السلام قبل أن يحدث له مثلما حدث لنبينا -صلى الله عليه وسلم-، فادخر الله -عز وجل- ذلك لنبينا -صلى الله عليه وسلم-، فكان أكثر الناس تابعًا وله الشفاعة الكبرى يوم القيامة -صلى الله عليه وسلم-.

هذا معنى فتح لك لتنال هذه العطايا {لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} أول مرة النبي يسمع هذه الكلمة، {مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} تخيل وقعها على نفسه؟ لذلك ابن كثير يقول "وليس في الأحاديث الصحاح ثواب مثل هذا" بمعنى لا يوجد حديث فيه من فعل ذلك فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لا .. هذه خصوصية للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فمثلًا هل وجدت حديثًا من فضائل الأعمال أن الذي يعمل كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ لا، هذه خاصة بمن؟ بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقع هذه الكلمة على النبي -صلى الله عليه وسلم- ماذا فعل؟ قام حتى تورمت قدماه، فهناك فرق، أنت يمكن أن تسمع معلومة مثل هذه، وتقول "الحمد لله لقد نجحت ".

لذلك لما قيلت له هذه الكلمة، فالصحابة سمعوها فكانت معلقة في أذهانهم، فيدخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول (يا رسول الله تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟)، لذلك بعض المفسرين ربط فقال أن الحديث لم يُقال إلا بعد نزول هذه السورة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم حتى تتورم قدماه بعد الستين سنة؟ هذه نزلت قلنا وهو عنده تسع وخمسون سنة.

ثم عندما رجع واستقر في المدينة وكان يدخل عليه الصحابي – مثلما قلت لكم – قال بعض أهل التفسير: الصحابي لم يقل هذه الكلمة إلا لما سمعها من القرآن، .. انظر إلى عبوديته –صلى الله عليه وسلم–، انظر القوة في الدين قال " يا رسول الله تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟" قال (أفلا أكون عبدًا شكورًا)[١٨] فكان وقع الكلمة لا يستطيع أن ينساه، فكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، بسبب هذه الجملة، انظر الفارق؟ ما تحدثه النعمة مع النبي –صلى الله عليه وسلم–.

أما الخوض في مسألة ما هي الذنوب؟ وما الذي تأخر؟

أنا لا أحب أن أخوض في ذلك.

قالوا الذنوب خلاف الأولى أو أنه عفى عن بعض المنافقين أو أيًا كان، هذا أمر بين النبي –صلى الله عليه وسلم– وبين ربه، لن نستفيد إذا خضنا فيه، هناك الكثير من المفسرين خاضوا في هذه المسألة وما هو الذنب بالضبط؟ المهم أنه قد غُفر.

حتى بعض الناس تأدبًا قال: هو شعور الألم والتقصير في صدر النبي –صلى الله عليه وسلم–، هذا الشعور ربنا أزاله، أيًا كان، فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال (إني ليُغان على قلبي)[١٩] من كمال الأدب مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ، فالأفضل أننا لا نخوض في ما هو ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

[١٨] قَامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فقِيلَ له: غَفَرَ اللَّهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، قالَ: أفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا..
الراوي: المغيرة بن شعبة | المحدث: البخاري | المصدر :صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم : ٤٨٣٦ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]
التخريج: أخرجه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩)

[١٩] إنَّه لَيُغَانُ علَى قَلْبِي، وإنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، في اليَومِ مِئَةَ مَرَّةٍ..
الراوي: الأغر المزني أبو مالك | المحدث: مسلم | المصدر :صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٧٠٢ | خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

{وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا} سنكتفى بذلك، والمرة القادمة إن شاء الله نتكلم على تمام النعمة وكمال الهداية وهذه نقطة أشرنا إليها قبل ذلك، ولفظ الجلالة تكرر مع المغفرة ومع النصر {لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا} ثم قال {وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا} لماذا تكرر في البداية وفي النهاية؟

نكمل المرة القادمة بإذن الله –عز وجل–، نسأل الله أن يتم لنا على خير، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.